أسباب اختلاف القراءات

رابط اليوتيوب للمحاضرة

https://youtu.be/pRGL0wb7WPs

يمكن تقسيم أسباب الاختلاف إلى قسمين، الأول: أسباب أولية، والثاني: أسباب ثانوية.

القسم الأول: الأسباب الأولية

أولاً: اختلاف قراءات النبي

فقد ورد أن النبي لم يكن ملتزماً بقراءة واحدة عندما كان يعلم القران للمسلمين. فقد ورد أن جبرئيل أمر النبي أن يقرا القران على سبعة أحرف وكل حرف كاف شاف، كما في (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان).

ثانيا: قبول النبي قراءات الناس على لهجاتهم المختلفة

فالذي من قبيلة هذيل يقرأ: حتى حين: يقرأها عتى حين. والأسدي يقرأ تعلمون تعلم تسود وجه ألم إعهد الكم. كل ذلك بالكسر. والتميمي يهمز والقرشي "لا يهمز": وكذلك في الإشمام (وغيض الماء) والإدغام. فليس كل شخص يقدر على ذلك.

ثالثا: اختلاف مصاحف الصحابة

في زمن النبي (ص) كان الصحابة يحفظون القرآن، وكان بعضهم ينسخ صحفاً خاصة به، وبعد وفاة النبي كان عند بعضهم مصحف خاص به، وربَّما اختلفوا في نسخ النصّ القرآني أو اختلفوا في كيفية قراءته، وهذا من الطبيعي أن يولد اختلافاً في مصاحف الصحابة الأُولى، وكان كل بلد من البلدان الإسلامية آنذاك تقرأ حسب المصحف الذي جمعَه الصحابيّ النازل عندهم. فكان أهل الكوفة يقرأون على قراءة ابن مسعود، وأهل البصرة على قراءة أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على قراءة أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على قراءة أُبَي بن كعب، وهكذا. **وهذا هو الاختلاف الأول.**

رابعا: أخطاء تتعلق بنسخ القرآن (رسم كلمات القرآن)

بعد أن اشتد الخلاف في عهد عثمان أمرَ جماعة بنَسْخ مصاحف موحَّدة، وإرسالها إلى الأمصار، وأمر المسلمين في تلك الأمصار بالالتزام بقراءتها وترك المصاحف الأخرى. لكنَّ هؤلاء الجماعة كانوا يخطؤون في النسخ، ومن ثمَّ وقعت في نفس تلك المصاحف أخطاء إملائية وتناقضات وبعض الاختلافات، وهكذا رجع الاختلاف في قراءة القرآن مرة ثانية.

وكان عثمان قد بعث مع كلِّ مصحف مَن يُقرئ الناس على المصحف الموحَّد، فبعث مع المصحف المكّي عبد الله بن السائب، ومع المصحف الشامي المغيرة بن شهاب، ومع الكوفي أبا عبد الرحمن السلمي، ومع البصري عامر بن قيس.

وكان هؤلاء المبعوثون يقرأون الناس في كلِّ بلد على حسب المصحف المرسَل إليهم، ومن ثمَّ عاد محذور الاختلاف؛ نظراً لوجود اختلاف في رسم تلك المصاحف، مضافاً إلى عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختلاف، فكان أهل كلِّ بلد يلتزمون بما في مصحفهم من رسم، ومن هنا نشأ اختلاف قراءة البلدان، بدلاً من اختلاف القرّاء الَّذي كان قبل ذاك.

كانت القراءة قبل هذا الحادث تُنسب إلى جامعي المصاحف، أمّا الآن فتنسب إلى البلد الَّذي بُعث إليه المصحف العثماني – غير الموحَّد تماماً – فكانوا يقولون: قراءة مكَّة، قراءة الشام، قراءة المدينة، قراءة الكوفة، قراءة البصرة، وهكذا.

وقد يظهر من بعض الروايات تساهل الخليفة عثمان في ضبط خط القرآن ورسمه، فقد ورد عن ابن أبي داود: أنَّهم بعدما أكملوا نَسْخ المصاحف رفعوا إلى عثمان مصحفاً، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحْن ستقيمه العرب بألسنتها، ثمَّ قال: أمّا لو كان المُملي من هُذيل، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا".

ولم يسمح الإمام علي بتغيير الخط، حتى لا يحصل تحريف في القرآن، فقل قولته المشهور: (لا يُهاج القرآن بعد اليوم ولا يحوَّل). وأصبح موقف الإمام (عليه السلام) هذا مرسوماً إسلاميّاً مع الأبَد، لا يحقّ لمسلم أن يمدّ يدَ إصلاحٍ إلى أخطاء القرآن، مهما كانت

نيَّته صادقة أمْ كاذبة؛ وبذلك حلّ القرآن الكريم وسط إطار من التحفُّظ الكامل على نصِّه الأصيل، وسلِمَ من التحريف والتبديل أبديّاً.

ولا شكَّ أنَّ اختلاف مصاحف الأمصار كان أهمَّ عوامل نشوء الاختلاف القرائي، كان أهل كلِّ مِصر ملتزمين بالقراءة وفْق مصحفهم، وعلى إقراء مُقريهم الخاصّ، وهكذا قرأ ابن عامر – وهو مقرئ الشام –: (جاءوا بالبينات وبالزبر) – بالباء –؛ لأنَّ مصحف الشام كان كذلك، وقرأ الباقون بغير باء. وقرأ نافع وابن عامر: (سارعوا إلى مغفرة من ربّكم) – بلا واو –؛ لأنَّ مصحف المدينة ومصحف الشام كانا خالياً منها، ونافع مدَني، وابن عامر شامي، وقرأ الباقون بالواو؛ لأنَّ مصاحفهم كانت مشتملة عليها.

١-بداءة الخط

كان الخطّ عند العرب آنذاك في مرحلة بدائية، ومن ثمَّ لم تستحكم أُصوله، ولم تتعرَّف العرب إلى فنونه والإتقان من رسْمه وكتابته الصحيحة، كانوا يكتبون الكلمة وفيها تشابه واحتمال وجوه: فالنون الأخيرة كانت تُكتب بشكل لا يفترق عن الراء، وكذا الواو عن الياء، وربّما كتبوا الميم الأخيرة على شكل الواو، والدال على صورة الكاف الكوفية، والعين الوسط كالهاء.

كما ربّما كانوا يفكِّكون بين حروف كلمة واحدة، فيكتبون الياء منفصلة عنها، كما في (يستحي ي) و(نُحي ي) و (أُحي ي)، أو يحذفونها رأساً كما في (إيلافهم) كتبوها (إلا فِهم) بلا ياء، الأمر الَّذي أُشكل على بعض القرّاء فقرأها وفْق الرسم بلا ياء، قرأ ذلك أبو جعفر فقد قرأ (ليلاف قريش) بحذف الهمزة وإثبات الياء، و (إلافهم رحلة الشتاء والصيف) بإثبات الهمزة وحذف الياء.

وربَّما رسموا التنوين نوناً في الكلمة كما كتبوا النون ألفاً في كثير من المواضع، منها: (لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ) و (لَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ)، وهاتان النونان نون تأكيد خفيفة كتبوها بألف التنوين.

وهكذا حذفوا واوات أو ياءات بلا سبب، فكان من أهمّ عوامل الاختلاف في القراءة بل في التفسير أيضاً، كما في قوله تعالى: **(وصالحوا المؤمنين)** فلم يكتبوا الواو هكذا: **(وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)**، ومن ثمَّ وقع الاشتباه أنَّه مفرد أُريد به الجِنس أو جمْع مضاف. وغير ذلك كثير.

ومن ثمَّ ربَّما كان الأوائل يتّهمون كَتَبة المصاحف فيرون الصحيح غير ما كتبوه، كما روي عن ابن عبّاس أنَّه قرأ (ووصّى ربُّك أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه) فقيل له: إنَّه في المصحف (وقَضَى رَبُّكَ) فقال: التصقت أحد الواوين فقرأ الناس **(وقضى)**، ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد.

وفي لفظ ابن أشتة: استمدّ الكاتب مداداً كثيراً فالتصقت الواو بالصاد. وروي أيضاً عنه أنَّه قرأ **(أفلم يتبيَّن الَّذين آمنوا)** فقيل له: في المصحف (أفلَم يَيأس) فقال: أظنّ الكاتب كتبها وهو ناعس.

٢ - خلوُّ كلمات النسخ من النُقط

كان الحرف المعجم يُكتب كالحرف المهمل بلا نُقَط، فلا يُفرّق بين السين والشين في الكتابة، ولا بين العين والغين، أو الراء والزاي والباء والتاء والثاء والياء، أو الفاء عن القاف، أو الجيم والحاء والخاء، والدال عن الذال، أو الصاد عن الضاد، أو الطاء عن الظاء، فكان على القارئ نفسه أن يميّز بحسب القرائن الموجودة أنَّها باء أو ياء، جيم أو حاء، وهكذا.

من ذلك قراءة الكسائي: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبّتوا) وقرأ الباقون: (فتبيَّنوا)وقرأ ابن عامر والكوفيون: (ننشرها)، وقرأ الباقون: (ننشزها). وأمثلة هذا النوع كثيرة جدّاً.

٣ – تجرد الكلمات عن الشكل

كانت الكلمة تُكتب عارية عن علائم الحركات القياسية في وزنها وفي إعرابها، وربَّما يحتار القارئ في وزن الكلمة وفي حركتها فيما إذا كانت الكلمة محتملة لوجوه، مثلاً لم يكن يدري (اعلم) أمرٌ أمْ فِعل مضارع متكلّم، فقد قرأ حمزة والكسائي (قال اعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير) بصيغة الأمر، وقرأ الباقون بصيغة المتكلّم، كما قرأ نافع قوله تعالى: (وَلاَ تسْأَلُ

عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) بصيغة النَّهي، وقرأ الباقون بصيغة المضارع المجهول إلى غير ذلك من الشواهد المتوفّرة في المصحف الأوَّل.

ولهذا يمكن القول إنَّ القراءات ربما لا تكون رواية عن النبي، بل هي اجتهادات من القرّاء، فيما إذا لاحظنا السبب الَّذي من أجله اختلف القرّاء في قراءاتهم، وهو خلوّ المصاحف المرسلة إلى الجهات من النقَط والشكل.

٤- طبيعة الخط الكوفي وسقوط الألف

كان الخطّ العربي الكوفي مأخوذاً من الخط السرياني، وكانوا لا يكتبون الألِفات الممدودة في ثنايا الكلِم، وقد كتبوا القرآن بالخطِ الكوفي على نفس المنهج، الأمر الَّذي أوقع الاشتباه في كثير من الكلمات، فقد قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: (وما يخادعون إلاّ أنفسهم) بدل (وما يخدعون)؛ نظراً لأنّ (يخادعون الله) في صدر الآية قد كُتبت بلا ألف فزعموهما من باب واحد.

وهكذا كتبوا (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ) - وحَرَم - بلا ألف، ومن ثمَّ قرأ حمزة والكسائي وشعبة (وحِرْم) بكسر الحاء وسكون الراء.

وقرأ الكوفيّون (ألم نجعل الأرض مهداً) بدل (مهاداً)؛ لأنَّها كُتبت في المصحف بلا ألف.

وعلى أيّ تقدير، فإنَّ عدم انتظام خطِ المصحف الأوَّل كان أوَّل عامل في نشوء اختلاف قراءة القرّاء. فكان على القارئ نفسه أن يختار نوع الحرف والشكل وتمييز الكلمة في حركتها القياسية ونوعيَّة إعرابها، فضلاً عن إعجامها وتشكيلها، حسب ما يبدو له من قرائن وأحوال وشواهد ونظائر، ومناسبة المعنى واللفظ، فكان عليه - لا محالة - أن يلاحظ جميع هذه الملاحظات، ثمَّ يختار القراءة الَّتي يراها وفْق الاعتبار الصحيح في نظرِه.

ولا شكَّ أنَّ الأنظار والدلائل تختلف حسب عقليّات الأشخاص وسابقة إلمامهم بالأمر، ومبلغ ممارستهم للموضوع، ومن ثمَّ وقع الاختلاف في قراءة القرآن حسب تفاوت الاجتهادات النظرية، فقد استند كلُّ قارئٍ إلى عِلل وحُجج ربَّما تختلف عن حُجج الآخرين.

تلك أهمّ أسباب الاختلاف في القراءات، مضافة إلى اجتهادات نظرية واعتبارات كان القارئ يلاحظها ويستند إليها في قراءته.

وهذه الأسباب يعتقد بها أيضاً بعض المستشرقين مثل جولدتسهير: "وتجاه هذه القراءات يسود الميل إلى التسامح، فلم تستبعد مثل تلك القراءات المختلفة لصالح نص اعتمدت صحته وحده، كما كان منتظراً من نص إلهي إنما يمكن أن ينسب إلى نفسه حق الصدور عن الله إذا جاء في قالب موحد متلقى من الجميع بالقبول، وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدد إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها. وإذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه" (١).

القسم الثاني: الأسباب الثانوية

أولا: تغير اللهجات

لا شكَّ أنَّ كلَّ أُمَّة – وإن كانت ذات لُغة واحدة – فإنَّ لهجاتها تختلف حسب تعدّد القبائل والأفخاذ المنشعبة منها، وهكذا كانت القبائل العربية تختلف مع بعضها في اللهجة وفي التعبير والأداء.

من ذلك اختلافهم في الحركات، مثل: (نستعين) – فتح النون وكسرها – قال الفرّاء: هي مفتوحة في لغة قيس وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون، واختلافهم في الحركة والسكون، مثل قولهم: (معكم) – بفتح العين وسكونها، واختلافهم في الهمز والتليين، نحو: "مستهزؤن" و "مستهزون".

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامية، جولدتسهير، ص٧-٨.

واختلافهم في التقديم والتأخير، قال المبرّد: تقول العرب: **صاعقة وصواعق** وهو مذهب أهل الحجاز، وبه نزل القرآن، وبنو تميم يقولون: **صاقعة وصواقع**.

واختلافهم في الإثبات والحذف، نحو: استحيت واستحييت، أو تبديل حرف صحيح معتلاًّ، نحو: أمّا زيد وأيما زيد. واختلافهم في تحريك الحرف الساكن بالكسر أو الضمّ، فيقولون: اشتروا الضلالة – بكسر الواو وضمّها. واختلافهم في التذكير والتأنيث، فإنَّ من العرب مَن يقول: هذه البقَر، ومنهم مَن يقول: هذا البقَر، وهذه النخيل وهذا النخيل. واختلافهم في الإدغام، نحو: مهتدون ومهدّون – بتشديد الدال في الثانية – واختلافهم في الإعراب، نحو: ما زيد قائماً، وما زيد قائم، فإنّ (ما) عند تميم غير عاملة، وعند الحجازيّين عاملة عمل ليس.

ومن ذلك أيضاً: مبالغتهم في إظهار الهمزة المفتوحة فتتبدَّل إلى العين، وهي لُغة دارجة في تميم وبني قيس بن عيلان – كما قال الفرّاء – وتسمّى (عنعنة تميم)، فيقولون: (أشهد عنَّك رسول الله)،

لكنَّها لُغة مذمومة، ومن ثمَّ قال أحمد بن فارس – بصدد الإشادة بلُغة قريش –: ألا ترى أنَّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الَّذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم – بكسر التاء والنون – ومثل: شعير وبعير – بكسر الشين والباء.

ثانيا: تحكم الرأي والاجتهاد

وهذا أكبر العوامل تأثيراً في اختيارات القرّاء، كان لكلِّ قارئ رأي يعتمده في القراءة الَّتي يختارها، وكانوا – أحياناً – مستبدّين بآرائهم ولو خالفهم الجمهور أو أهل التحقيق. كما أنكروا على حمزة كثيراً من قراءاته، ولم يكن يعبأ بهم لقوَّة ما كان يراه من حُجج.

وهكذا استبدَّ ابن شنبوذ بما يراه صحيحاً وإن كان على خلاف المرسوم العثماني، فعُقِد لاستِتابته مجلس بحضرةِ الوزير ابن مُقلة، فأغلظ في الكلام عليهم أوّلاً، حتّى أمَر الوزير بضربه سياطاً ألجأته إلى إعلان توبته مقهوراً عليه. وانعقد مجلس آخر لأبي بكر ابن مقسم،

الَّذي كان يختار من القراءات ما بدا له أصحّ في العربية، ولو خالف النقل، أو رسم المصحف. نعم، لم يكن إنكارهم على أمثال هؤلاء لجانب تحكيمهم للآراء والأذواق الاجتهادية، بل لجانب خروجهم عن موافقة مرسوم الخطّ، فالقراءة إذا كانت متوافقة مع ظاهر الرسم فلا تُعَدُّ منكَرة. وقد كانت مِيزة القرّاء السبعة وغيرهم من المشهورين المعتمدين هو التزامهم بموافقة الرسم خطّاً.

قسم علوم القرآن د. فلاح جامعة البصرة